15- هجرة نبى الإسلام ، محمد - ﷺ - (622م)

The Migration Of Mohammad (P.B.U.H) (622 A.D)

دأب المؤرخون غير المسلمين على تصوير هجرة نبى الإسلام ، محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى الدينة كما لو كانت مجرد «هروب Flight» لشخص كان مضطهدا فى موطنه الأصلى ، ضاق مواطنوه به ذرعا ، وضاق بهم ، ولم يعد يطيق العيش معهم .

فاضطر إلى الهروب اضطرارا ، وفر من موطنه الذى لم يعد يستطيع فيه استقرارا ، وكأنما لم يأمره الله بالهجرة تحقيقا لمشيئة إلهية بالغة الحكمة ، حتى لا يقال : إنه اعتلى عرش الملك فى موطنه ثم انطلق منه انطلاق الغزاة المعروفين فى التاريخ إلى أجزاء أخرى ونشر دينه بحد السيف ، اعتمادا على القوة الغاشمة والعسف ، وفى ثنايا ذلك يدسون أيضا كثيرا من الأكاذيب التى تحاول أن تظهر نبى الإسلام ـ عليه السلام ـ باعتبار أنه شخص غير سوى فى دوافع سلوكه وفى وسائله وغاياته .. كل هذه الأكاذيب فندها القرآن الكريم وردها على أصحابها . لقد كانت هذه الهجرة نقطة تحول بالغة الأهمية فى تاريخ البشرية .

نبى الإسلام ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، أوحى الله إليه الشريعة الكاملة للدين الصحيح المتضمن للعقيدة السليمة الإلهية الخالدة كما أرادها الله للناس جميعا ، عقيدة وشريعة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . كانت رسالة كل رسول من رسل الله قبل ذلك قاصرة على قومه خاصة ، أما رسالة نبى الإسلام فهى موجهة من الله إلى البشر كافة فى كل مكان وكل زمان.

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، ينتهى نسبة الشريف إلى سيدنا إسماعيل، الابن البكر لأبى الأنبياء والمرسلين ، سيدنا إبراهيم عليه السلام .

ولقد ولد نبى الإسلام ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة المكرمة فى عام (570م.) وهو العام المعروف فى التاريخ العربى أنه «عام الفيل» ، إذ حاول أبرهة على

رأس جيشه أن يهدم الكعبة المشرفة ، ولكن الله أنقذ بيته الحرام وأرسل على أبرهة وجيشه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ، كما جاء فى القرآن الكريم .

وكان أبوه عبد الله بن عبد المطلب قد توفى فى يثرب ، موطن أخواله – صلى الله عليه وسلم–قبل مولده ، وماتت أمه آمنة بنت وهب وهو فى السادسة من عمره ، فكفله جده عبد المطلب الذى توفى فى عام (578م)عندما كان سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فى الثامنة من عمره . وكفله بعدئذ عمه أبوطالب حتى وفاته فى عام (620م) ،وكان سيدنا محمد–صلى الله عليه وسلم قد بلغ عند وفاة عمه أبى طالب الخمسين من عمره، وكان قد تزوج وأعلن دعوته إلى قومه أن يتركوا عبادة الأصنام ليعبدوا الله وحده لا شريك له الذى خلقهم ورزقهم ، أما الأصنام، التى كانوا يعبدونها فهى لا تنفع ، بل إنها تضر بهم ضررا بليغا، إذ يشركون بالله الواحد ما يزعمون ألوهيته ، وهى ليست فى حقيقة الأمر إلا أصناما من صنع البشر ، ولكن معظم قومه فى مكة وما جاورها كذبوه وآذوه وقاوموه ولم يؤمن بدعوته إلى الدين الصحيح إلا قليل من أتباعه الذين اضطهدهم مشركو مكة كل الاضطهاد ، وعذبوهم واضطر كثير منهم إلى الهجرة إلى الحبشة .

واستمر نبى الإسلام – عليه السلام – مقيما فى مكة المكرمة يتحمل المشاق فى دعوة قومه إلى دين الله طوال ثلاثة عشر عاما كانت حافلة بالأحداث التى لا يتسع المجال لذكر تفاصيلها ، وقد أيده الله بأن أنزل عليه القرآن الكريم منجما معجزا لقومه، مفحما لزيغهم عن الدين الصحيح ، وداحضاً لرغبتهم فى التمسك بعبادة الأصنام ، مظهرا لبطلانها ، بأسلوب معجز ، ولم يجدوا سبيلا أو دليلا إلى إنكار إعجازه وإنزاله من عند الله على خاتم رسل الله – عليه الصلاة والسلام.

ووصلت محاولات كفار قريش فى إلحاقهم الأذى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الذروة عندما اجتمع زعماؤهم فى دار الندوة ، واستقر رأيهم على أن يختاروا من كل قبيلة من قبائل المشركين شابا قويا يتقلد سيفه ، وأن يقتحم أولئك الشبان دار رسول الله ﷺ ليضربوه ضربة رجل واحد ويتفرق دمه بين القبائل ، فلا يستطيع أبناء عمومته أن يحاربوا كل القبائل ثأرا لمقتله ، ويرضون بقبول الدية التى كان المشركون مستعدين لعرضها عليهم .

وجاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبلغه تفاصيل مؤامرة المشركين لاغتياله ، وأمره بالهجرة من مكة إلى المدينة وهكذا كانت الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة بأمر الله وفقا لمشيئة الله وإرادته ، ونجح النبى – صلى الله عليه وسلم ـ فى الوصول إلى المدينة يوم الإثنين ، فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة (622م) واستقبله المسلمون من المهاجرين والأنصار فرحين مستبشرين .

ولعل السؤال الذى يتبادر إلى الأذهان بشدة هو : لماذا كان كفار قريش يحرصون إلى هذا الحد على منع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الهجرة ؟ وجواب هذا السؤال هو أنه كان لدى كفار قريش فى مكة أسباب مادية بحتة هى التى جعلتهم يحرصون كل ذلك الحرص الشديد على منع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه من الهجرة من مكة المكرمة إلى أى مكان آخر . كان كفار قريش أهل تجارة ، وكانت لهم علاقات تجارية ضخمة مع الحبشة ومصر والشام وكل أقاليم الإمبراطورية الرومانية ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى رحلة الشتاء ورحلة الصيف باعتبار أنهما من مصادر الرزق والدخل لأهل مكة . وكان من الطبيعى إذن أن يخافوا خوفا شديدا من هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة مثلا حتى لا ينتشر الإسلام فى بلاد الحبشة مما يؤثر سلبا على تجارتهم مع أهل الحبشة ، فأرسلوا بعمرو بن العاص بهدايا إلى ملك الحبشة ليحثه على أن يعيد المهاجرون المسلمين من الحبشة إلى أهليهم وذويهم فى مكة المكرمة على نحو ما هو معروف من ذلك . وكان من الطبيعى أيضا أن ترتعد فرائص التجار المشركين فى مكة من أن يهاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة حيث يوجد كثير من المهاجرين المسلمين وكثير من الأنصار الذين دخلوا فى الإسلام من أهلها كما هو معروف . وتقع المدينة مباشرة على طريق القوافل التجارية الخارجة من مكة ، والقادمة إليها مما يعتبر تهديدا مباشرا للنشاط التجارى لمشركى مكة ، وهو قوام حياتهم ، ولذلك كانوا يمكرون ويحاولون إبقاء سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه فى مكة ليكون تحت أعينهم وليكون تأثير انتشار الإسلام محدود النطاق داخل مكة لا يتجاوزها إلى مدن وأقطار أخرى ، ولكن مشيئة الله غلبت مشيئتهم ، والله غالب على أمره . ويمكرون ويمكر الله .. قضت المشيئة الإلهية أن ينجح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الهجرة المدنية من مكة المكرمة إلى المدينة ولا راد لمشيئة الله .

ومن المفارقات الهامة المتعلقة بالهجرة أيضا أن اليهود فى المدينة كانوا قد قويت شوكتهم ، وتكاثرت أعدادهم ، فوجئ اليهود فى المدينة بأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو النبى المنتظر ، خاتم الأنبياء حقا وصدقا ، أنزل الله إليه القرآن الكريم متضمنا للشريعة الإلهية الكاملة ، ولكنه من بنى إسماعيل وليس من بنى إسرائيل كما كانوا يشتهون ، فكرهوا هذه الحقيقة الإلهية ، وأصر «معظمهم» على الكفر بنبوته ورسالته ، بل كانوا يجتهدون فى الكيد له ومحاولة القضاء على دعوته بكل الوسائل المتاحة . وكان ليهود المدينة فى عدائهم ومقاومتهم لدعوة الإسلام شئون ذات شجون ، وانتهى بهم الحال إلى الجلاء عن مدينة الرسول قبيلة بعد الأخرى لخيانتهم العهود والوعود كما هو دأب اليهود فى كل آفاق الوجود .

وهكذا كانت الهجرة النبوية نقطة تحول فى التاريخ البشرى كله ، ولم يستطع مشركو مكة التى هاجر منها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه ، ولم يستطع يهود المدينة التى هاجر إليها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه أن يطفئوا نور الله ، لأن الله يأبى إلا أن يتم نوره ، وكانت الهجرة النبوية وفقا للمشيئة الإلهية منارة غمرت أنوارها كل آفاق البشرية ، وكان لها شأن حاسم فى ظهور الإسلام واستمرار الدعوة إلى دين الله ، لكى تنطلق دعوة الإسلام بعد منعطف الهجرة النبوية لتشمل مساحات شاسعة من أرض العالم المعمور ، يغمرها حتى اليوم نور الإسلام ، هى ما نعرفه اليوم باعتبار أنه أرض الإسلام أو أرض العالم الإسلامى كما أراد الله لأرض الإسلام أن تتسع وتمتد. ونظرا لعظم الهجرة وأثرها فى مستقبل نشر الدعوة الإسلامية ، فقد اتخذ منها المسلمون مناسبة يؤرخون بها أيامهم .. وهذا ما رآه عمر ابن الخطاب وارتضاه المسلمون أجمعون ، باعتبار أن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة علامة هامة وحدثاً مميزاً فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

16- معركة تور (معركة بلاط الشهداء) (732 م)

The Battle Of Tours (732 A.D)

وقعت معركة تور فى اليوم العاشر من شهر أكتوبر سنة (732 م) بين العرب المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، وجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل ، وتمكن جيش الفرنجة من رد جيش المسلمين على أعقابه فى هذه المعركة الحاسمة .

ويعرض المؤرخون الغربيون لذكر هذه المعركة بكثير من الفخر والغرور والتيه والتعالى والغطرسة ، كما لو كانت الشعوب الأوربية قد نجحت فى القضاء على غارة همجية بربرية !!

ونعرض فيما يلى لدراسة موقعة تور فى الإطار التاريخى الصحيح دون مغالطة أو تعصب ، ودون مبالغة أو تكبر .

امتدت حركة الفتح الإسلامى انطلاقا من شبه الجزيرة العربية شرقا لتقضى على الإمبراطورية الفارسية وتطوى كل الأراضى الفارسية ، ثم تتجاوزها شرقا حتى الهند وبلاد الصين وبلاد الأفغان وجنوب شرق أوربا حتى الحدود الروسية . كما امتدت حركة الفتح الإسلامى أيضا شمالا لكى تضم إلى أرض الإسلام كل الولايات التى كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية فى الشام وفلسطين ولبنان حتى جبال «طوروس» ، التى أصبحت الحد الفاصل بين أرض الإسلام وبقايا الإمبراطورية الرومانية ، بل امتدت أرض الإسلام شمالا لكى تضم أراضى آسيا الصغرى ليصبح مضيقا البوسفور والدردنيل هما الحد الفاصل بين أراضى المسلمين وأراضى الإمبراطورية الرومانية ، ناهيك عن عبور الأتراك العثمانيين لهذين المضيقين وإخضاعهم دول جنوب شرق ووسط أوربا لحكم الخلافة العثمانية ، وامتدت كذلك حركة الفتح الإسلامى فى كل شمال إفريقيا ، كما عبر المسلمون مضيق جبل طارق غربى البحر المتوسط عند التقائه بالمحيط الأطلسى إلى أسبانيا ، أو بلاد الأندلس، وأخضعوها للحكم الإسلامى لبضعة قرون من الزمان .

ويلاحظ أن حركة الفتح الإسلامى لم يشهد لها التاريخ مثيلا من قبل من وجهين: أولهما : هو السرعة الكبيرة الخارقة للعادة ، وثانيهما : هو الاستقرار العربى الإسلامى فى كل هذه الأجزاء الشاسعة من العالم المعمور بحيث اكتسب السكان الأصليون لهذه البلاد المفتوحة اللغة العربية ، لغة الإسلام ، ولغة القرآن الكريم ، كما دخل معظم أهل البلاد والأقاليم التى خضعت للفتح العربى فى الإسلام طواعية واختيارا وليس قهرا وإجبارا .

وربما شهد التاريخ قليلا من حركات الفتح السريع لأجزاء شاسعة من الأراضى كما هو الشأن فى فتوحات الإسكندر المقدونى ، أو اكتساح الجيوش الألمانية لأراضى كثير من الدول الأوربية فى العامين الأولين من الحرب العالمية الثانية ، ولكن يلاحظ أن فتوحات الإسكندر الأكبر المقدونى قد ضاعت آثارها هباءً بعد وفاته وهو فى الثالثة والثلاثين من العمر دون أن يترك أية آثار بشأن اللغة اليونانية أو بشأن نشر الديانة التى

كان يعتنقها اليونان آنذاك ، مما يجعل حركة الفتح الإسلامى منقطعة النظير بين حركات الفتح السابقة واللاحقة دون شك أو جدال لأسباب كثيرة ، منها : بساطة ووضوح الإسلام عقيدة وشريعة ، إعجاز القرآن الكريم إعجازا حاسما ، عدم إجبار المسلمين رعايا أى أقليم خضع للحكم الإسلامى على اعتناق الإسلام ، لأن فرض عقائد الدين بالقوة مستحيل ، ولو تحقق منه شيء فهو سريع الزوال ، التسامح الإسلامى الذى لا يفرق بين عربى وأعجمى ، ولا بين أبيض وأسود ولا بين أحمر وأصفر إلا بالتقوى ، كل الناس فى شريعة الإسلام أبناء آدم ، وآدم من تراب ، وكل الناس فى شريعة الإسلام قد خلقهم الله من ذكر وأنثى وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا . ولقد توافرت هذه الأسباب كلها وتضافرت لكى تكفل لحركة الإسلام خاصيته التى انفرد بها من بين حركات الفتح السابقة واللاحقة .

فى ضوء هذه الحقائق ، وفى ضوء حقائق أخرى سنذكرها بعد قليل ، نسوق بين يدى القارئ الكريم لمحة عن معركة «تور» التى يبالغ المؤرخون الغربيون فى التعليق عليها وتحميلها أكثر مما تحتمل عندما يصبغون هذه المعركة بصبغة التعصب الدينى والاستعلاء والتفاخر الحضارى .

نحن الآن فى اليوم العاشر من أكتوبر سنة 732م وقد التقى جيش المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقى بجيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل الملقب بالمطرقة Hammer وهو أحد الملوك الإفرنج وكان يحكم الجزء الشمالى من فرنسا .

ومنذ أواخر القرن الأول الهجرى (92 هـ =711م) كان طارق بن زياد قد عبر مضيق جبل طارق من شمال إفريقيا إلى أسبانيا ، وهزم جيش القوط تحت قيادة لذريق (رودريجو) فى معركة «وادى بكة» ، ودخل العاصمة طليطلة ، واستمر حكم العرب المسلمين فى أسبانيا خمسة قرون متصلة امتدت إلى حوالى ثمانية قرون فى جنوب أسبانيا .

ولم تكن الدول الأوربية فى إيطاليا وجنوب أوربا ليستقر لها قرار أو يهدأ لها بال وهم يشاهدون الزحف العربى الإسلامى بادئا من الطرف الجنوبى الغربى للقارة .

واستمرت محاولات الدول الأوربية المتاخمة لأسبانيا فى شن الغارات والمعارك ضد العرب المسلمين فى أسبانيا ، مما كان يضطر العرب المسلمين إلى التوسع شمالا فى سلسلة من الحروب الوقائية للسيطرة على مزيد من الأراضى الأوربية فيما وراء الجزء الشمالى من أسبانيا .

فى عام (102هـ =721م) خاض حاكم الأندلس العربى ، السمح بن مالك سلسلة من المعارك حتى استشهد فى معركة بالقرب من «تولوز» فى الأراضى الفرنسية بعد أن عبر بجيشه جبال البرانس الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا .

وتولى حكم الأندلس بعد السمح بن مالك عنبسة بن سحيم الكلبى الذى قاد سلسلة من المعارك ، ووصلت جيوش الأندلسيين تحت قيادته إلى إقليم «بورجندى» على مسافة لا تزيد على 160 كم من باريس ، ولكن عنبسة قتل فى كمين نصب له فى جبال البرانس فى طريق عودته على رأس جيشه إلى الأندلس سنة (106 هـ =725م) مما يدل على وجود جيوب مقاومة لجيوش المسلمين خلف خطوطهم .

وتولى حكم الأندلس بعد عنبسة عبد الرحمن الغافقى الذى تقدم بجيشه وأخضع النصف الجنوبى من فرنسا حتى وصل على رأس جيشه إلى بلدة «تور Tour» على مسافة قليلة جنوبى العاصمة الفرنسية باريس .

ولم تكن فرنسا آنذاك تحت حكم ملك واحد ، بل كان شأنها فى ذلك شأن معظم الممالك الأوربية آنذاك مجرد أقاليم وولايات ، لكل ولاية أو إمارة ملك أو أمير، ولكل ولاية أو إمارة جيش صغير أو كبير حسب مساحة كل منها وحسب عدد سكانها .

وإزاء تقدم الجيش العربى الإسلامى تحت قيادة عبد الرحمن الغافقى إلى وسط فرنسا ، وهو جيش كان قوامه نحو 400 000 مقاتل ، اضطر حاكم ولاية «إيدو Eudo» فى وسط فرنسا إلى طلب النجدة من شارل مارتل Charles Martel الملقب بالمطرقة لشدة بأسة وقوة جيشه فى شمال فرنسا.

وفى اليوم العاشر من أكتوبر سنة (732م =113هـ) التقى جيش شارل مارتل بجيش عبد الرحمن الغافقى الذى أصيب بسهم أودى بحياته فى معركة تور ، مما أضعف معنويات جنوده وجعلهم يشرعون فى الانسحاب من المعركة ، وهكذا توقف تقدم المسلمين فى الأراضى الفرنسية إلى الأبد .

وينسى المؤرخون الغربيون كل المعارك التى انتصرت فيها جيوش المسلمين فوق الأراضى الأسبانية والفرنسية .

وليس انتصار جيش وهزيمة آخر حدثا منقطع النظير فى التاريخ الإنسانى بطبيعة الحال ، خصوصا عندما ندرك طول خطوط مواصلات الجيش الفاتح مما يبعده عن مواطن إمداده وتموينه بالرجال والسلاح ، ومن الطبيعى أن يضعف هذا الجيش بالتدريج ويفقد قوة اندفاعه شيئا فشيئا كما حدث بالنسبة لغزوة هانيبال بعد عبوره جبال الألب ومحاولته دخول روما . ولقد حدث ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية فى مرات عديدة أبرزها ضعف الإمدادات الألمانية لجيش روميل فى شمال إفريقيا مما جعله ينهزم فى معركة «العلمين» ، وكذلك تراجع الجيوش الألمانية عن الأراضى الروسية فى الحرب العالمية الثانية نظراً لطول خطوط الإمداد .

من طبائع الأمور فى المعارك الحربية أن تقف الجيوش الغازية عند حد معين لا تستطيع أن تتجاوزه ، وعندما يحاول جيش أن يتجاوز قدراته الهجومية يتعرض للهزيمة دون شك فى ذلك باطراد على مدار التاريخ .

ولا ينبغى أبدا أن ننسى أن الحروب والمعارك الكبرى إنما هى أسباب لتحديد مصائر شعوب ودول وأمم وفقاً لإرادة الله ومشيئته . وخلاصة القول فى هذا الصدد هو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد شاءت إرادته أن تتوقف الفتوحات الإسلامية فى جنوب غرب أوربا عند بلدة «تور Tour» وأن تتوقف الفتوحات العثمانية عند فيينا فى جنوب شرق أوربا ، لتظل قارة أوربا مغلقة فى وجه الفتوحات العربية الإسلامية بعد ذلك ، حيث تحرص القيادات المسيحية فى أوربا على أن تظل مغلقة فى وجه أى اختراق عربى إسلامى .

17- الحملة الصليبية الأولى (1096م - 1099م)

The First Crusade (1096 - 1099 A.D)

يوجز مؤرخ غربى مغزى وخلاصة وعبرة وأهمية الحملة الصليبية الأولى (1096 ـ1099م) عندما يكتب عنها تحت العنوان مباشرة باللغة الإنجليزية ما يلى:

(The Pilgrimage That Marked The Revival Of Religion In Europe)

ومعناه ، كما لا يخفى ، هو أن الحملة الصليبية الأولى إنما كانت من وجهة نظره هى : «رحلة الحج التى أعادت الحياة إلى الدين فى قارة أوربا !» .

هل كانت الحملة الصليبية الأولى حقا بمثابة رحلة حج وبعث جديد ، وهى التى جعلت الحياة تدب من جديد فى أوصال الدين المسيحى فى أوربا ؟ يدحض هذا الادعاء دحضا تاما حقيقة أن المسيح عليه السلام لم يكن بأى حال من الأحوال

داعية حرب ، بل كان داعية سلام يدعو إلى تحقيق السلام فى النفس البشرية بالوداعة والهدوء والقناعة والعزوف عن الإسراف فى الإقبال على أسباب اللذات الحسية ، والاكتفاء من الحياة بما يقيم أودها . دعا المسيح ـ عليه السلام ـ أيضا إلى السلام مع الآخرين ونبذ الحروب ، وهو القائل : «كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» (متى 26 : 52) ، ودعا المسيح ـ عليه السلام ـ إلى نبذ الثورة ضد الملوك والحكام ، وهو القائل : (اعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر) داحضاً بذلك الاتهام الذى كان خصومه من اليهود قد حاولوا إلصاقه به ، وهو الاتهام بأنه كان يدعو اليهود إلى عدم دفع الجزية ، ودعا المسيح ـ عليه السلام ـ إلى العزوف عن التهافت للحصول على السلطة السياسية وفرض النفوذ والهيمنة على الآخرين عندما قال للحاكم الرومانى بيلاطس : «مملكتى ليست من هذا العالم» داحضا بذلك اتهام اليهود له بأنه يريد الاستقلال بفلسطين عن السيطرة الرومانية ليصبح المسيح ـ عليه السلام ـ ملكا لليهود فيما زعم اليهود زورا وبهتانا . كان المسيح ـ عليه السلام ـ داعية سلام مع النفس ومع الآخرين ، ويطلق عليه المسيحيون ـ ولهم كل الحق فى ذلك – لقب «أمير السلام Prince Of Peace» .

كيف إذن قلب المسيحيون حجر الزاوية فى دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ ونبذوا كل ما نادى به من سلام وامتشقوا الحسام ليشنوا الحملة الصليبية الأولى ضد أقطار إسلامية فى الشام وفلسطين ، دون أى مبالاة بسفك دماء الملايين من الناس مسلمين ومسيحيين ؟

كيف بدأت الحملة الصليبية الأولى ؟ وماذا كانت وقائعها ؟ وكيف كانت نتائجها ؟

هل كان دعاة الحملة الصليبية يعتقدون أنها الأولى والأخيرة ؟ كيف ولماذا لم تكن الحملة الصليبية الأولى هى الأولى والأخيرة ؟

شن الصليبيون الحرب فى الحملة الصليبية الأولى دون أن يعرفوا عواقبها ، ودون أن يدركوا نتائجها ، وأنى لهم أن يطلعوا على الغيب المحبوء فى المستقبل وهم يجهلون كل الجهل ما يتضمنه المستقبل ؟

غرور القيادات المسيحية فى العصر الوسيط هو الذى زج بملايين الضحايا فى المأزق المأساوى الدموى للحروب الصليبية لتنتهى بعد ثلاثة قرون من الزمان الحملات الصليبية دون أن تحقق أى هدف من أهداف الزعامات المسيحية لدى الكنيسة

الكاثوليكية التى حرصت على أن تشن الدول الأوربية سلسلة من الحروب الدموية ضد الأراضى والأقطار الإسلامية من عام 1095م حتى عام 1291م عندما تمكن السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل من طرد آخر بقايا الصليبيين من فوق الأراضى العربية الإسلامية .

ولقد كانت بداية الحملة الصليبية الأولى هى تلك الخطبة التى ألقاها البابا «أوربان الثانى Urban II» الذى اعتلى الكرسى البابوى فيما بين عامى (1088_1099) ، وألقى خطبته الشهيرة فى حشود المستمعين وبينهم حشد من حكام وأمراء الدويلات الأوربية فى حقل فسيح فى كليرمون جنوبى فرنسا لبدء تحريك حملة حربية ضد المسلمين فى فلسطين ، إذ قال البابا أوربان الثانى فى ثنايا خطبته بالحرف الواحد ما يلى : «إننى أخاطب الحاضرين ، وأعلن أولئك الغائبين من المسيحيين أنه فضلا عن أن المسيح يأمر بالحرب لتخليص أرض المسيح من أيدى الكفار ، فإنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء فى مسيرتهم على الأرض ، أو أثناء عبورهم البحر ، أو فى خضم قتالهم ضد الوثنيين . وهذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التى أعطانى الرب إياها ... » .

ولم يكن المسيح ـ عليه السلام ـ يأمر بتلك الحروب ، بل كان أميرا للسلام، داعية إليه كما سبق أن أشرنا ، ولم يكن البابا أوربان الثانى يستطيع أن يغفر ذنوب الناس لأنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله ـ سبحانه وتعالى . ولم يكن المسلمون كفارا ، بل إنهم يعبدون إلها واحدا قهارا . وليس المسلمون وثنيين ، بل كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى أبطل ودحض عبادة الناس للأصنام على المستوى المادى وعلى المستوى العقلى . وكان نبى الإسلام ـ عليه السلام ـ هو الذى حطم الأصنام مرددا : ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء :81] .

وهكذا منح البابا أوربان الثانى الأمراء المسيحيين الذين استمعوا إلى خطبته عصا ، وتصريحا بالحرب ضد المسلمين لاحتلال القدس وبيت لحم ، ولقب جندى المسيح، وصكا بغفران الخطايا والآثام ، وهى الصكوك التى ثار ضدها وأعلن بطلانها «مارتن لوثر Martin Luther (1483ـ 1546م) الذى تزعم حركة الإصلاح البروتستانتى الرافضة لصكوك الغفران المناوئة للكاثوليكية .

لقد كانت فكرة الحرب ضد بلاد المسلمين قد داعبت الأحلام فى أوربا بتحريض

من الكنيسة الكاثوليكية لطرد المسلمين من أسبانيا ، ثم تحولت الفكرة نحو حرب المسلمين من جهة الشرق أيضا . وبعد أن كانت الفتوحات الإسلامية تهدد أوربا غربا من أسبانيا وشرقا من القسطنطينية ، تحول المسيحيون من الدفاع غربا وشرقا إلى الهجوم .

وكان ذلك عندما ظهرت بوادر الخلاف وأسباب الفرقة والانقسام بين أجزاء العالم الإسلامى ، ولم تعد البلاد الإسلامية يحكمها خليفة واحد من عاصمة واحدة، بل أصبحنا نجد فى القرن العاشر الميلادى أو الرابع الهجرى خلافة عباسية سنية المذهب فى بغداد ، وخلافة فاطمية شيعية المذهب فى القاهرة ، وخلافة أموية فى الأندلس ، ناهيك عن استقلال الحكام والأمراء وقادة الجند بالأقاليم تحت سيطرتهم استقلالا شبه تام عن أى عاصمة إسلامية من تلك العواصم الثلاث ، مما شجع أوربا على محاولة استعادة الأراضى التى فقدتها الإمبراطورية الرومانية المسيحية أمام حركة الفتح الإسلامى اعتبارا من القرن الأول لظهور الإسلام ، عندما شاهدوا التفكك والتشرذم يسود العالم الإسلامى نتيجة الانغماس فى متاهات السياسة الدنيوية، والتهافت على الملذات والاستحواذ على السلطة ، وأصبحت أرض العالم الإسلامى مجزأة إلى إقطاعات تشبه كل الشبه الإقطاعات الأوربية بعد أن ابتعدت عن قيم الإسلام الروحية التى كانت تربط بين أجزائها ، فلماذا لا تكون هذه الفرقة وذلك الانقسام إغراء للكاثوليكية المسيحية أن تستعيد كل ما فقدته الإمبراطورية الرومانية ؟ ولماذا لا تستعيد الكنيسة الكاثوليكية نفوذها الذى كانت تمارسه فى ظل السيطرة الرومانية فى الشام وفلسطين ومصر وكل الساحل الجنوبى للبحر المتوسط ؟

من هنا ، ونظرا للجهل والظلام الذى كان يسود أوربا فى العصر الوسيط ، ونظرا للتواطؤ المستمر بين الكنيسة الكاثوليكية والسلطات السياسية والعسكرية الحاكمة فى أوربا ، كانت الأجواء مهيأة لبدء الحرب الصليبية الأولى ضد أقطار العالم الإسلامى بدءا من عام 1095م ، ثم توالت الحملات الصليبية الأخرى على مدار ثلاثة قرون حافلة بالمعارك وسفك دماء المسيحيين والمسلمين على السواء .

ومن غير المجدى فى هذه العجالة الموجزة أن نستعرض تفاصيل معارك ووقائع الحروب الصليبية المتتالية ، ونكتفى بعرض قليل من مناظر الإعداد للحملة الصليبية الأولى . لعب «الهوس الدينى Religious Phobia» برءوس الأوربيين بعد استماعهم إلى خطبة البابا أوربان الثانى سنة 1095م ، وانتشار أخبارها فى الأقطار الأوربية انتشار النار فى الهشيم ، خصوصا أن البابا أوربان الثانى كان قد أعد وانتقى جمهور

المستمعين لخطبته تلك إعدادا جيدا ، إذ عمد مسبقا إلى توجيه الرسائل والمبعوثين إلى ملوك وأمراء الدول الأوربية يدعوهم إلى الحضور إلى الخطاب المرتقب الذى كان البابا سيتفضل بإلقائه على مسامعهم ، وكانت تلك الدعوة على هذا النحو منقطعة النظير مثيرة للفضول ، فحضر ـ معظم إن لم يكن كل ـ ملوك وأمراء الدول الأوربية إلى كليرمون ليستمعوا إلى البابا ، ويعرفوا ما كان يريد أن يقوله لهم .

وهكذا نجح البابا فى أن يضمن جمهورا على أعلى مستوى من القوة والنفوذ فى كل الدول والإمارات الأوربية فى آن واحد ، مما جعل مضمون خطبته تلك ينتشر بسرعة فائقة منحدرا من أعلى سلطة فى كل دولة من الدول الأوربية إلى جموع الشعب فى كل منها ، وليجد الجميع هدفا مشتركا يسعون لتحقيقه لكسر الرتابة والجمود فى حياة الأمراء والحكام الحافلة بالترف ، وحياة الناس الفقراء الحافلة بالبؤس والظلم والشقاء ، بحيث يجد الأمراء والحكام شيئا يفعلونه وهدفا يحققونه ، وبحيث يجد الناس الفقراء ظروفا للحياة فى بلاد أخرى ربما تكون أفضل من حياتهم البائسة اليائسة ، إذ من المحتمل أن تحقق لهم مزايا دنيوية ومزايا أخروية ، وشاعت بين الناس فى مختلف أنحاء أوربا عبارة لاتينية هى «Deus To volt» ومعناها : «الرب يريدها» أى أن الرب يريد هذه الحرب الصليبية ضد المسلمين . من الذى قال لهم : «الرب يريدها؟» هل قال لهم الرب ذلك ؟ بالطبع لا . ولكن البابا أوربان الثانى هو الذى قال لهم ذلك . وما دام البابا قد قال لهم هذه المقولة فقد اعتبروا أن الله قد قال هذه العبارة ، وكأنهم بذلك قد خلطوا بين البابا وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكفهم أن يجعلوا المسيح هو الرب ، وها هم أولاء يعتبرون أن الكلام الذى يصدر عن البابا هو كما لو كان كلاما يصدر عن الرب !

ومن المشاهد المعبرة عن الهوس الدينى فى فترة الاستعداد والتحضير للحملة الصليبية الأولى مشهد ذلك القس الراهب المسمى بطرس الناسك الذى كان معاصروه يطلقون عليه لقب «كيوكيو Kiokio» أى الصغير ، لضآلة جسمه . وكان بطرس الناسك هذا راهبا فى بلدة إميان ، وهجر الدير بتكليف من البابا أوربان الثانى لكى يقوم بدعوة الناس الفقراء وعامة الشعب للاشتراك فى الحملة الصليبية التى دعا إليها البابا . وقضى بطرس الناسك عامى 1096/1095 م فى شمال وشرق فرنسا واللورين يتجول من مكان لآخر داعيا إلى المشاركة فى حملة البابا . وفى كل مكان كان يذهب إليه كان يسحر ويخلب ألباب عامة الناس بفصاحته ومقدرته الخطابية التى كانت تتناقض مع هيئته الزرية ، إذ كان بينه وبين حماره شبه عجيب ، كان

حماره الذى يتنقل به من مكان إلى مكان وهو يمتطيه حمارا ضئيل الحجم زرى الشكل . وحيثما كان يحل بطرس الناسك ممتطيا حماره كان الفقراء المشدوهون يهرعون للالتفاف حوله ، ويستمعون إلى خطبة حماسية تلهب عواطفهم وتخلب ألبابهم وهو يكيل الاتهامات الزائفة للإسلام وللمسلمين وللقرآن الكريم ولنبى الإسلام ـ عليه السلام ـ .. وكانوا أيضا يتسابقون لنزع شعرات من ذيل الحمار المسكين ومن جسده طلبا للبركة !

وهكذا أصبح بطرس الناسك تجسيدا للهوس الدينى فى أوضح صوره إلى حد أن اعتبره بعض المؤرخين الغربيين «أمير الحروب الصليبية» ، ومن طريف ما يروى بشأن بطرس الناسك هذا أنه كان أول من حاول الهروب من بين الصليبيين أثناء حصار الصليبيين داخل أنطاكية .

ونمضى قليلا لمتابعة تصرفات بطرس الناسك لنجد أن صغار الفلاحين فى وسط أوربا لم ينتظروا الموعد الذى حدده البابا والحكام والأمراء لبدء الحملة الصليبية ريثما يتم الإعداد لهذه الحملة ، بل أفضى بهم الحماس والهوس الدينى إلى أن يقتنعوا بقيادة بطرس الناسك لجموعهم بعد أن حصدوا محاصيلهم الزراعية فى ربيع سنة 1096 ، وحملوا كل ما يمكن حمله فوق العربات التى كانت تجرها الثيران ، ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ليتحرك موكب حاشد من الفلاحين وراء بطرس الناسك لغزو الشرق ، مطلع الشمس ، الأرض التى كان يعيش فوق ترابها السيد المسيح .

وقاد بطرس الناسك هذا الجيش البائس ، واشترك معه فى قيادة ذلك الجيش أحد الفرسان من بلدة «بواسى Poissy» كان يدعى الخبرة العسكرية الرفيعة المستوى هو «والتر المفلس Walter Sanavoir» .

وعبر جيش بطرس الناسك و والتر المفلس بلاد المجر ، ثم استجدت مطالب تموين وإعاشة أفراد هذا الجيش الذى لم يجد مناصا من اللجوء إلى ممارسة أبشع أساليب النهب والسلب والقتل فى الأراضى البلغارية للحصول على ما يلزم لإعاشة جيش ليس له مصدر إمداد وتموين منظم ، مما اضطر البلغار إلى مهاجمة جيش بطرس الناسك و والتر المفلس .

وعلى كل حال ، فقد وصل جيش بطرس الناسك ووالتر المفلس إلى مدينة سملين على مقربة من حدود الدولة البيزنطية ، وكشف «جيش الرب» عن وجهه القبيح ، وجرت على بلدة سملين وأهلها مذبحة رهيبة ، وأزهقت أرواح أربعة آلاف

من أهلها (*)، وتحولت المدينة إلى خراب يتصاعد منها دخان الحرائق التى أشعلها الفرنج فى كل مكان ، وتعالت أصوات الجرحى من جراء الجرائم التى كان يرتكبها «جنود الرب» ضد الإخوة المسيحيين الذين زعم «جيش الرب» أنه سيستعيد لهم أمجادهم الضائعة .

وعندما وصل جيش الرب إلى مدينة «نيش Nish» عند الحدود الفاصلة بين المجر وبين أراضى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) خاف «نيكتياس Niktias» قائد الحامية البيزنطية على مدينته من تصرفات هذه الجموع الخرقاء الهمجية . ولم يخيب جيش بطرس الناسك شكوك القائد البيزنطى ، فلقد أحرق جنود بطرس الناسك مساكن القرويين مع سكانها الأحياء فى داخلها ، ونهبوا وسلبوا . وعندئذ هاجم البيزنطيون جيش بطرس الناسك فقتلوا الكثير من رجاله وأسروا عددا كبيرا منهم ، واستولوا على الأموال والتبرعات التى كان ذلك الراهب قد جمعها من دول وسط وغرب أوربا . وبعد ثلاثة أيام من التشتت عاودت شراذم جيش بطرس الناسك التجمع وسارت صوب مدينة «صوفيا Sofia» ، وهناك لقيهم مندوبون عن الإمبراطور البيزنطى «ألكسيوس كومنينوس» ، أبلغوا بطرس الناسك أن الإمبراطور يأمر أن لا يقيم جيش بطرس الناسك فى أى مدينة ، أو قرية من بلاده أكثر من ثلاثة أيام . واستمر جيش بطرس الناسك فى تقدمه حتى وصل إلى أسوار القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى أول شهر أغسطس سنة 1096 م.

ولدى مقابلة الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس مع بطرس الناسك أدرك الإمبراطور أن هذه الجموح الهائجة لن تصمد أمام جيش أى ولاية إسلامية من الولايات الإسلامية المتاخمة لأراضى الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ونصح الإمبراطور أن ينتظر بطرس الناسك وجيشه وصول جيش الأمراء والقادة العسكريين الأوربيين الذين يعرفون فنون القتال ، ولكن بطرس الناسك كان مغترا لكثرة عدد أفراد جيشه .

وحاول جنود جيش الرب أن يعيثوا فسادا فى القسطنطينية نفسها ، مما جعل الإمبراطور يأمر جيشه بضرورة إجلاء جنود جيش الرب عنها على الفور ، فعبروا مضايق البوسفور والدردنيل إلى آسيا الصغرى . وكانت معظم البلاد هنالك يقطنها مسيحيون ، وهنالك تصرف جنود «جيش الرب» على نحو لا يرضى عنه الرب ، وارتكبوا أبشع المذابح ضد الأهالى المسيحيين . وحاولوا التقدم نحو بلاد المسلمين ، ولكن جنود جيش الرب وقعوا فى كمين نصبه لهم الأتراك السلاجقة ، وأجهزوا

(*) د. قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية – ص 118 عالم المعرفة بتصرف .

على جيش الرب ، وقتلوا «والتر المفلس» على حين تمكن بطرس الناسك من الفرار إلى القسطنطينية .

بيد أن الحملة الصليبية الأولى لم تنته أحداثها ووقائعها بتبديد شمل جيش بطرس الناسك وهزيمته ، إذ أن جيوش الأمراء والملوك في العديد من الممالك والإمارات الأوربية كانت تستكمل استعدادتها للحرب ضد الأقطار الإسلامية فى أواخر صيف عام 1096م . وتكونت بالفعل عدة جيوش كبيرة منفصلة بسبب اختلاف اللغة التى يتكلمها أفراد كل منها واختلاف الجنسيات وانفصال الإقطاعيات الأوربية آنذلك .

خرج من فرنسا جيشان أحدهما تحت قيادة «جودفرى البيونى Goudfrey De Bouillon» وأخيه «يلدوين» وهو جيش كبير خرج من اللورين وشمال شرق فرنسا وغرب ألمانيا ، كما خرج من غرب وجنوب فرنسا جيش كبير آخر يقوده «روبرت دوق نورماندى Robert Of Normandy» وزوج أخته «استيفين» أمير وحاكم إقليم بلوا «Stephen Of Blois» . وخرج جيش ثالث من من تولوز تحت قيادة «ريموند الرابع» حاكم إقليم تولوز«Raymond Iv Of Toulouse» الذى كان قد بلغ الستين من العمر ، وكان فى صحبته الكاردينال «لوبوى» المندوب البابوى فى الحملة الصليبية الأولى . وكان الجيش الرابع تحت قيادة «هيو» حاكم إقليم فرماندوا «Hugh Of Vermandois» الذى كان أول جيش يصل من طلائع هذه الجيوش الأربعة . ومن الواضح أن هذه الجيوش قد خرجت من فرنسا وغرب ألمانيا ، وخرج مع هذه الجيوش الأربعة جيش خامس من جنوب إيطاليا يقوده «بوهيموند النورمانى» .

خمسة جيوش نظامية تحت قيادة ملوك وأمراء وقادة عسكريين محترفين متمرسين بخوض معارك القتال ، اتجهت نحو الدويلات الإسلامية المفككة الأوصال ، التى كان حكامها قد استقل كل منهم بواحدة منها لكى يناصب الدويلات الإسلامية الأخرى العداء . وإذا كانت أول إمارة سلجوقية إسلامية قد تمكنت من دحر جيش الغوغاء الذين كان يقودهم بطرس الناسك ووالتر المفلس بسهولة تامة ، فلقد كان من الطبيعى أن تلتهم جيوش الحملة الصليبية الأولى الخمسة هذه الولاية السلجوقية التى كان يحكمها «قلج أرسلان» وتتجاوزها لتلتهم ما بعدها من ولايات إسلامية بكل سهولة أيضا واحدة إثر الأخرى بطريقة الالتهام العسكرى قطعة بعد قطعة فى هجمات سريعة متتالية Piece Meal Attacks ، وهى هجمات سهلة للجيش المهاجم ، ومن الصعب أن يصمد فيها الجيش المدافع بسبب ميراث ضخم من الشكوك والعداوة والمنازعات والدسائس والمؤامرات لتتوسع كل إمارة من الإمارات الإسلامية على

حساب الإمارة الأخرى المجاورة لها ، وحولت الأطماع السياسية المتعلقة بحطام الدنيا أرض الإسلام إلى دويلات شبيهة بالدويلات والإمارات والإقطاعات التى كانت موجودة فى أوربا ، ولم يعد العالم الإسلامى يحكمه «خليفة» واحد من عاصمة واحدة ، ولم تعد كل البلاد تتضافر جهودها الحربية ضد أى عدو فى أية حرب . وكان لابد من دفع ثمن باهظ لذلك الانقسام وتلك الفرقة عندما هاجمت جيوش الحملة الصليبية الأولى الولايات والإمارات الإسلامية واحدة بعد الأخرى ، ولكن جيوش الصليبيين لم تكن فى نزهة داخل بلاد المسلمين ، إذ كانت تتعرض باستمرار لحرب عصابات يشنها جماعات من الأهالى المسلمين على شكل حرب عصابات تلقائية تظهر وتختفى وتضرب وتختبئ ، توقع الخسائر بالجيش المهاجم ، ولكنها لا تكفى لدحره ورده على أعقابه ليعود من حيث أتى.

وكان الجيش الصليبى يتقدم فى طريقه غير مبال بالخسائر الناجمة عن حرب العصابات ، وجنح جيش «بلدوين» شرقا واستولى على إمارة الرها فى شمال العراق ، وأقام بها وقد عزم على الاستقرار فيها منسلخا عن بقية جيوش الحملة الصليبية الأولى ، وكأنما كان شمال العراق مزارا من مزارات الحجاج المسيحيين ، وكأنما لم يكن الحج إلى بيت المقدس هو هدف الحملات الصليبية .

وفى شهر أكتوبر 1097 بدأ الصليبيون حصار إنطاكية ، وأسرفوا فى السلب والنهب من القرى المحيطة بها لتموين الجيش بالطعام وكل ضرورات الإعاشة . وأصر «بوهيموند» على أن يكون ملكا على مدينة أنطاكية وهدد بالانسحاب إن لم يحقق له الصليبيون مطلبه ، أى أنه هو الآخر ، شأنه شأن «بلدوين» لم يكن يعنيه من شأن الحج إلى بيت المقدس أى شيء . ونجح الصليبيون فى دخول أنطاكية بعد حصار طويل وتسلم بوهيموند القلعة الموجودة بها من قائد تلك القلعة «أحمد بن مروان» . وتنازع «ريموند» مع «بوهيموند» فى السيادة على أنطاكية ، ونشب قتال بينهما ، وتمكن بوهيموند من طرد ريموند من المدينة ، ولم يجد الأخير بداً من التقدم من الشمال إلى الجنوب ليبحث لنفسه عن إمارة يكون ملكا عليها . وأفضى ذلك النزاع إلى تأخير تحرك الجيش الصليبى نحو بيت المقدس حتى أواخر سنة 1098 م . وانضم جيش كل من جود فرى وتنكرد إلى جيش «بوهيموند» ووصلوا إلى مدينة بيت المقدس فى شهر يناير 1099 م وتمكن الصليبيون من اقتحام القدس فى يوم الجمعة الموافق 15 يوليو 1099 (22 شعبان سنة 492 هـ) . وسالت الدماء بغزارة فى شوارع المدينة المقدسة .

وليس من هدفنا فى هذه العجالة الموجزة أن نعرض تفاصيل الحملة الصليبية الأولى ولا الحملات الصليبية التالية لها على مدار ثلاثة قرون متتالية، لأن ذلك يستغق كتبا ضخمة الحجم ، وتوجد بالفعل كتب كثيرة تعرض تفاصيل أحداث ومعارك تلك الحروب الصليبية ، ولكن هدفنا هنا من تأمل بعض أحداث ووقائع افتتاحية الحملة الصليبية هو أن نتحقق ما إذا كانت الحروب الصليبية قد قامت بسبب رغبة المسيحيين فى أوربا فى تأمين طريق الحج إلى بيت المقدس ، وأن نتحقق ما إذا كانت الحروب الصليبية « إحياء للدين فى أوربا «Revival Of Religion In Europe» .

لقد كانت للحروب الصليبية أسباب وأهداف أخرى غير تأمين طريق الحج إلى بيت المقدس . كانت الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية هى :

1- تعاسة الشعوب المسيحية فى ظل نظام إقطاعى ظالم مظلم .

2- رغبة ملوك وأمراء أوربا فى الحصول على إمارات وممالك خارج قارة أوربا إشباعا لرغبتهم فى المزيد من السيطرة والسلطة على الآخرين . وحب السيطرة والسلطة من أهم دوافع السلوك الإنسانى منذ خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض ومن عليها ، وهو السبب الحقيقى للكثير من المنازعات والحروب على مستوى الأفراد والأمم .

3- الرغبة فى الثأر من هزيمة الجيوش الرومانية أمام حركة الفتح الإسلامى فى فلسطين والشام ومصر وشمال إفريقيا وبلاد الأندلس .

4- رغبة البابا والقيادات الدينية والمسيحية فى المزيد من السيطرة على ملوك وأمراء أوربا ، وممارسة القدرة والسلطة الدينية لتأثيرها على السلطة الأمنية السياسية والعسكرية، ذلك بتحديد هدف كبير وشعار فضفاض خلاب ينسى العاطفة الدينية بطريقة غامضة ، ولكنها رغم غموضها بالغة التأثير ، وأفضت إلى إشعال حماسة دينية زائفة فى قلوب الملوك والأمراء وعامة الشعوب الأوربية على حد سواء فى صورة من أوضح صور الهوس الدينى Religious Phobia الذى ربط بين الحج وحصول المسيحى على صك من صكوك الغفران .

ولم تكن الحروب الصليبية تهدف إلى تأمين طريق الحج للمسيحيين فى دول أوربا على الإطلاق . أى حج ذاك الذى يبرر احتلال أراض وإقامة

ممالك فى بقاع مثل الرها فى شمال العراق أو أنطاكية فى شمال بلاد الشام والمسيح – عليه السلام– لم يطأ هذه البلاد بقدميه على الإطلاق ؟

أى حج ذاك الذى يمارسه الحجيج وهم يصطحبون معهم كل أسلحة القتال فى جيوش ضخمة تسفك الدماء ، وتحرق وتدمر القرى ، وتفضى إلى هلاك كثير من المسيحيين والمسلمين على حد سواء ؟

لقد كانت الحروب الصليبية هى التجربة الأولى لحملات الاستعمار الأوربى فى العالم العربى الإسلامى ، إذ أثبتت هذه الحروب الصليبية أن التغلب على جيش المسلمين ممكن بعد أن كان الأوربيون يعتقدون من خلال التجارب العديدة السابقة أن ذلك هو المستحيل بعينه عندما كان العالم الإسلامى يحكمه «خليفه واحد» من «عاصمة واحدة» ، وكان بالعالم الإسلامى «بيت مال واحد» . ولكن دوام الحال من المحال ، وسبحان مبدل الأحوال .

ولقد كانت الحروب الصليبية أيضا مرشدة وملهمة لحركة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى أعلن الصهاينة قيام دولة إسرائيل فى عام 1948 م .

ولم يقض صلاح الدين الأيوبى فى «معركة حطين» على كل الوجود الصليبى فى العالم الإسلامى ، بل يرجع إلى صلاح الدين الأيوبى الفضل كل الفضل فى عدم السماح للخطر الصليبى بالتوسع أولا ، وفى تدميره للبنية الأساسية للجيش الصليبى فى معركة حطين ثانيا ، وتكفل من جاء بعده من الملوك الأيوبيين بالقضاء التام على الوجود الصليبى فوق الأرض العربية . ومن هنا تتضح أهمية وخطورة تدمير القدرة البشرية لدى العدو ، لأن العنصر البشرى هو أهم أجزاء آلة الحرب وهو العنصر الأساسى الذى لا يمكن تعويضه فى بناء الجيوش ، ولم تستطع أوربا بالفعل تعويض الخسائر البشرية فى صفوف الصليبيين بعد معركة حطين . وينبغى أن يكون ذلك درسا مستفادا ودليلا مرشدا للعمل ضد العدو . ويدرك الصهاينة دلالة هذا الدرس جيدا ، والدليل على ذلك هو قول «ليفى أشكول» رئيس وزراء إسرائيل فى أول خطبة له يلقيها بعد حرب 1967 مباشرة ، إذ قال فى خطبته تلك : «تسألوننى ماذا نحتاج إليه الآن ؟ وأنا أقول لكم كلمة واحدة : نحتاج إلى «يهود» . نحتاج إلى مهاجرين جدد يأتون للمعيشة فوق أرض إسرائيل» .

18 - معركة حطين (1187 م)

The Battle of Hutten

فى يوم السبت ، الرابع من شهر يوليو من عام 1187م ، الموافق الخامس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة 583هـ، احتدمت واختتمت معركة حربية فاصلة بين جيوش السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وجيوش مملكة بيت المقدس وسائر الإمارات الصليبية بالشرق ، عند مرتفع بركانى قديم .. تقول الروايات المسيحية : إنه الموضع الذى ألقى عنده المسيح ، عليه السلام ، موعظة الجبل !!

واسم ذلك الموضع «تل حطين» .. أو قرون حطين ، وهو على مسافة نحو خمسة أميال من الشمال الغربى من مدينة طبرية ..ويمر عليه المسافر العابر من طبرية إلى عكا ، فلا يرى من ماضى مجده العالى سوى صمت صخرى مستديم ، تكسوه أشعة شمس لافحة ، لاسيما حينما يكون الوقت من قيظ الصيف ، فى مثل يوم وقعة حطين !!

غير أن لذلك الصمت الحاضر مناقض من ضوضاء هادرة صاخبة ماضية ، يسمعها المتصفح لتاريخ هذا اليوم الذى سلك فيه الصليبيون مسلك الباحث عن حتفه بظلفه .. أو مسلك الحافر قبره بيده !!

والحديث عن معركة حطين يعود بنا إلى ما قبلها .. لماذا وقعت ؟

كان صلاح الدين مشغولا باستكمال الجبهة الإسلامية المتحدة بالشرق الأوسط تحت رايته ، تمهيداً لما عقد النية على النهوض به وهو القضاء على السيطرة الصليبية فى فلسطين .. وفى الوقت الذى كان فيه صلاح الدين يؤمن حلب والموصل وما بينهما ، قام الصليبيون بالإغارة على حوران وضواحى دمشق ، وذلك فى محاولة منهم لإفساد خطة صلاح الدين الأيوبى .

وكان هناك آخرون منهم راودتهم فكرة إعاقة خطة صلاح الدين بالإغارة على أجزاء من الدولة الإسلامية .. وكان من بين هؤلاء الصليبى الفرنسى الأصل ، والخبير بالحروب الصليبية وفلسطين ، «ريجنالد شاتليون» أمير حصن الكرك ، فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، وهو المعروف فى المراجع العربية باسم «أرناط» .

لم يكن هذا «الأرناط» أن يسمع بخبر مسير صلاح الدين شمالاً نحو حلب فى تلك السنة (1182) حتى أخذ فى تنفيذ مشروع راوده من سنين ، فأعد سفنا حربية صغيرة ، نقلها على هيئة أجزاء مفككة على ظهور الجمال إلى رأس خليج أيلة «العقبة» ، حيث استخدم هذه السفن فى أعمال القرصنة والسطو على القوافل التجارية فى البحر الأحمر ، والهجوم بعدئذ على مكة والمدينة إذا استطاع إلى ذلك سبيلا !!

استولى أرناط على ميناء أيلة ، وكان ضمن ممتلكات صلاح الدين الأيوبى، وخرب الميناء ، ونهب ما به من سفن وبضائع .. كما استولى على مراكب راسية فى ميناء الحواء شمالى ينبع والمدينة ، وعادت سفن أرناط محملة بالأسلاب !!

أبحرت حملة مصرية بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ فأغارت على قوات أرناط فى أيلة ، واضطرته إلى رفع الحصار عنها والفرار إلى حصنه بالكرك .. ثم أبحر حسام الدين بسفنه جنوباً من البحر الأحمر باحثا عن السفن الصليبية حتى أدركها على مسافة غير بعيدة من ميناء الحوراء قبالة مكة ، وهى محملة بما نهبت وسلبت ، فاستولى عليها وعمد إلى إحراقها ، ولذا أخذ الصليبيون يلوذون بالساحل العربى شمالى مكة وجنوبها ، يلاحقهم جنود الإسلام .. وأسروا منهم عدداً كبيراً عادت بهم السفن المصرية إلى القاهرة .

وأمام غدر «أرناط» وانتهاكه لحرمة البلاد والعباد أقسم صلاح الدين لينتقمن منه.. وزاد إصراره على تنفيذ ما قد عزم عليه ، وهو القضاء على الصليبين فى فلسطين

صلاح الدين يزحف بجيشه إلى فلسطين :

زحف صلاح الدين فى جيش غير قليل ، إلى فلسطين ، فاجتاز نهر الأردن عند ملتقاه بالساحل الجنوبى من بحيرة طبرية ، ووصل جنوبا إلى بيسان، وأنفذ منها دوريات من جيشه فى اتجاهات مختلفة لغزو الحصون والمعاقل الصليبية المجاورة ، ولإغراء جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها للخروج لمواجهته ، فى حين عسكر هو بمعظم جيشه حول بلدة «الطوبانية» وصهاريجها ذات المياه الوفيرة الطيبة ، وهو ما كان يحرص على توفيره لجنده .

تحركت جيوش مملكة بيت المقدس وتوابعها من مختلف المراكز الصليبية ، وتجمعت عند قرية «صفورية» ، ثم تقدمت جنوباً نحو عين جالوت ، وبذلك صارت وجها لوجه أمام جيوش صلاح الدين .

حاول صلاح الدين تطويق جيوش الصليبيين وإدخالهم فى معركة ينقض فيها عليهم .. إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث نظراً لإحجام الصليبيين عن الحرب .. فعاد صلاح الدين إلى قواعده بدمشق .. كان ذلك فى نهاية عام 1183 .

أثناء ذلك حاول صلاح الدين حصار «الكرك» للقضاء على حاكمها أرناط ، وكاد يقضى عليه لولا وصول النجدة من صاحب مملكة بيت المقدس الملك «بلدوين الرابع» .. وكان يعرف بالملك المريض .. وفى عام 1185 مات «بلدوين الرابع» .. وصارت مملكة بيت المقدس تحت وصاية زعيم صليبى قديم الصداقة والصلة بصلاح الدين ، وهو «الكونت رايموند الطرابلسى» وهو ما يعرف فى المراجع العربية باسم «القومص أو القمص» ، وذلك حتى يبلغ الملك الجديد «بلدوين الخامس» سن الرشد.

تمكن القمص من عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها أربع سنوات .. إلا أن تلك الهدنة لم تدم طويلاً .. ففى عام 1186 مات الملك الطفل «بلدوين الخامس» ، وهاجم الصليبيون المتعصبون سياسة الوصى «رايموند» ، وتم إعلان «جاى لوزينيان» ، والذى يعرف فى المراجع العربية باسم «جى» ، ملكا على بيت المقدس ، وبدأت طبول الحرب تدق !!

وقد تم القضاء على تلك الهدنة نهائيا ، وإعلان الصليبيين سوء ما أضمروا ، عندما اعترض «أرناط» قافلة تجارية كانت فى طريقها من القاهرة إلى دمشق ، فاستولى عليها عند حصنه ، ورفض أن يقوم بأى تسوية أو مفاوضات مع صلاح الدين .. وهنا أقسم صلاح الدين ، للمرة الثانية ، لينتقمن من هذا النذل الجبان !!

إعلان الجهاد :

أمام هذا الصلف الصليبى ، لم يكن أمام صلاح الدين بد من إعلان الجهاد ، فجاءت إليه جيوش من أنحاء مصر والشام والعراق ، وبلغت تلك الجيوش نحو عشرين ألفاً من الخيالة والمشاة .

وعقب صلاة الجمعة فى السابع عشر من ربيع الثانى عام 583 هـ ، الموافق السادس والعشرين من يونيو عام 1187م بدأ صلاح الدين زحفه بعدما علم أن جيوش مملكة بيت المقدس وسائر الإمارات والطوائف الصليبية قد اجتمعت عند «صفورية» ، وأنها مستعدة للحرب .

عبر صلاح الدين بجيوشه نهر الأردن عند قرية «الصنبرة» جنوبى بحيرة طبرية ، وعسكر حول قرية الأقحوانة على الضفة الغربية لنهر الأردن ، وأقام هناك خمسة أيام، وقد اختار هذا المكان لوفرة الماء فيه .. وحاول مناوشة الصليبيين وتحريكهم من مكانهم فى صفورية ، إلا أنهم لم يتحركوا .. فتحرك صلاح الدين يوم الخميس الثانى من شهر يوليو شمالاً إلى طبرية ، وهناك رتب صلاح الدين جيوشه .. فجعل تقى الدين عمر ، ابن أخيه على ميمنة الجيش ، ومظفر الدين كوكبرى على ميسرته، وتولى هو القلب ، حيث كان معه ابنه الشاب الأفضل على .

استولى صلاح الدين على طبرية ، واعتصمت الكونتيسة زوجة رايموند الطرابلسى بقلعة طبرية ، وأرسلت تطلب النجدة من الجيش الصليبى ، فأصدر الملك «جاى» الأمر بالزحف نحو طبرية .. وكان هذا ما تمناه صلاح الدين !!

تحرك الجيش الصليبى ، وكان على رأس المقدمة رايموند الطرابلسى (القمص) ، وتولى الملك «جاى» قيادة القلب ومعه «أرناط» صاحب الكرك .. كما تولى قيادة المؤخرة فارس مشهور هو «باليان» .. تحركوا جميعا ومعهم صليب الصلبوت ، أو الصليب الأعظم !!

واصل الصليبيون زحفهم وسط الطرق الوعرة حتى وصلوا إلى موضع اسمه «اللوبيا» فى منتصف المسافة بين صفورية وطبرية ، وبهذا الموضع بئر اعتقدها الصليبيون ذات ماءٍ يكفى لإطفاء ظمأ الجيش والجند ، فضربوا هناك الخيام للراحة والمبيت استعدادا للزحف نحو طبرية فى اليوم التالى .. إلا أن الصليبيين خاب مسعاهم عندما وجدوا أن البئر تكاد تكون خالية من الماء ، وأن عساكر المسلمين قطعوا عليهم الطريق إلى طبرية ، حيث الماء العذب الذى انفرد به المسلمون ، فعاشوا ليلتهم فى ضنك وظمأ ، واشتد بهم عطش الصيف .. فقد كان ذلك فى يوم السبت الرابع من شهر يوليو .

وعسكر المسلمون عند قرية حطين ذات الماء الوفير . ونشط الخيالة والمشاة، وانبعثت من خيامهم التكبير والتهليل ، بلغت أصداؤهما أسماع الصليبيين .

والتقى الجيشان ، وبات الفرق واضحاً .. الصليبيون يقاتلون وهم يعانون الظمأ والتعب .. والمسلمون وقد ارتفعت معنوياتهم ، وقائدهم صلاح الدين يتوسطهم وينصحهم ..

الفرار والهزيمة :

ولما رأى القمص «رايموند الطرابلسى» وجماعته شدة الأمر وأنه لا طاقة لهم بالمسلمين ، قرروا الفرار .. وبالفعل فروا من الميدان .. وحدث أن كان فى طريقهم أعشاب وحشائش جافة قد اشتعلت فيها النيران ، وملأ الدخان المنطقة .. فاجتمع على هؤلاء الفارين ؛ العطش ، والإرهاق ، وحر الزمان ، وحر النار ، والدخان ، وحر القتال !!

وأحاط المسلمون بالصليبيين ، وقتلوا وأسروا منهم أعداداً غفيرة ، وسلبوهم صليبهم الأعظم .. وكان من بين الأسرى الملك «جاى» وأخوه ، وأرناط صاحب الكرك .

قادة الصليبيين فى خيمة صلاح الدين :

أحضر صلاح الدين هؤلاء القادة فى خيمته ، وأجلس الملك «جاى» إلى جانبه، وقد أهلكهم العطش ، فسقاه ماءً بارداً ، وأعطى فضلة من الماء لأرناط .. وجلس صلاح الدين يعدد لأرناط مواقفه وحقده .. ثم قام فضرب عنقه بنفسه، وقال : كنت قد نذرت دفعتين أن أقتله ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القافلة غدراً !!

ولما رأى الملك ما حدث لأرناط ، ارتعدت فرائصه ، فأمنه صلاح الدين .. أما القمص صاحب طرابلس فقد فر إلى طرابلس وهناك مات كمداً وحسرة على ما أصاب الصليبيين فى حطين !!

19- الماجنا كارتا (1215م)

the Magna Carta (1215)

مات «ريتشارد قلب الأسد Richard The Lion Hearted» دون أن يعقب من نسله وريثا للعرش ، فاعتلى عرش بريطانيا الملك «جون John» وبسبب كثرة رذائله ومفاسده ، وبسبب كثرة منازعاته مع «البابا إنوسنت الثالث Pope Innocent III» لم يكن الملك جون يحظى بأى شعبية ، ولم يستطع الاحتفاظ بعلاقة قوية مع النبلاء الإنجليز . وبالإضافة إلى ذلك كانت حروبه الفاشلة فى نورماندى قد استنزفت الكثير من الموارد المالية فى الدولة أثناء تربعه على العرش ، ورفض النبلاء أن يدفعوا المزيد من الضرائب الباهظة التى كان الملك جون لا يتوقف عن طلب المزيد منها .

وفى شهر مايو سنة 1214م تم سحق وهزيمة جيش الملك جون فى نورماندى ، وانتشر التذمر فى إنجلترا إلى درجة أن تآزر وتعاون كل النبلاء فى إنجلترا وتحركوا إلى لندن تصاحبهم قوات مسلحة ، وأعلنوا سحب ولائهم للملك . ودعا الملك جون إلى عقد اجتماع لكل نبلاء إنجلترا فى ميدان «رنيميد Runnymade» فى 15 يونيو سنة 1215م . وهنا فى هذا المكان وذلك التوقيت تمت صياغة «الماجنا كارتا» أو «التعهد الأعظم» ، وتم الحصول على توقيع الملك جون على كل بنوده فى غضون أسبوع واحد من النقاش والمشاورات . وتضمنت بنود ذلك التعهد القوانين الصالحة التى كان قد صاغها الملك إدوارد المعترف King Edward The Confessor وهى القوانين التى كانت تضمن للنبلاء كل حرية فى التصرف فى شئون ولاياتهم وتمنحهم الحق فى ممارسة هذه الحرية بأنفسهم .

وعلى الرغم من أن الملك جون قد حاول التنصل من بنود الماجنا كارتا إلا أنه مات بعد إقرارها بعام واحد ، وتم التحفظ على أربع نسخ منها ، وهى محفوظة حتى الآن فى المتاحف البريطانية لكى تظل مُثُلاً عليا ، ورموزا للحقوق التى لا سبيل إلى إنكارها لكل المواطنين الإنجليز بحيث تتحقق لهم الحرية على مر العصور وتوالى القرون .